فى قلب المعركة

(وليال عشر)

obeikandl.com

obeikandl.com

«بسم الله الرحمن الرحيم»

مقاتل تحت مظلة الإيمان

فى كنف الله

عشرة أيام للعودة من سيناء (أبو عجيله)

من ٣١/ ١٠/ ٥٦ إلى ١٠/ ١١/ ١٩٥٦

بقلم المقاتل محمود عبد الحميد الثلث

مقدمة :

لما انتهت معركة الصبحة فى صيف عام ١٩٥٥ ، بحث المسؤولون عن ضباط المشاة المنتدبين خارج السلاح لتدعيم الكتائب فى سيناء فالتقطوا خمسين ضابطا كنت أنا أحدهم مأمور عتاقة إلى الكتيبة ١٨ مشاة فى أبو عجيلة .

تدربنا فى هذه الكتيبة على العمليات الحربية الهجومية التى كان متوقعا أن نقوم بها على اليهود ، حتى انتقلنا إلى مواقع « أم كتاف » وأصبحنا فى موقف الدفاع مع بعض الواجبات الهجومية الأخرى كالهجوم على الموقع اليهودى ببئر الملاقى .

جرت عدة تحسينات كبيرة وكثيرة في الموقع الدفاعى الذى كان يعتبر أقوى موقع فى منطقة سيناء الوسطى ، وكان يعتمد عليه فى صد الهجوم الرئيسى صوب العريش أو الإسماعيلية .

كان هذا الموقع مشرفا على طريق القسيمة أبو عجيلة ، وطريق العوجة أبو عجيلة . ورغم أن هناك طرقا أخرى طبيعية على يمين هذا الموقع ويساره ، ووديانا كثيرة كان من الممكن لليهود أن يعبروها دون أن يخترقوا مواقع ، إلا أنه من المدهش حقا أن تنطح القوات اليهودية صخرة مواقع أم كتاف العاتية لتبوء بالفشل أكثر من مرة .

لا أدرى لماذا لم تطوِّق القوات اليهودية هذا الموقع ببعض القوات المدرعة وتتخذ سبيلها مع باقى القوات اليهودية إلى قلب الاسماعيلية دون أن تؤخِّر قوات الحلفاء الأنجلو فرنسيين يوما أو اثنين حسب الخطة المشتركة الموضوعة ليتلاقى الجميع فى الإسماعيلية وبور سعيد والسويس .

لكن يظهر أن قيادة حلفاء إسرائيل كانت قد قدرت القوات الإسرائيلية بمستوى أعلى من الواقع وقدرت القوات المصرية على الحدود بمستوى أقل منها مما أخل بالجدول الزمنى لعمليات الهجوم ، وبالتالى فشل المعركة جميعها إذ لو كان موقع أم كتاف قد انهار من أول هجوم فى ٢٩ اكتوبر لكانت القوات المصرية فى سيناء وغزة فى موقف لا يحسد عليه واصبحت فالوجا أخرى كبيرة فى سيناء ولما أتاحت لباقى القوات فى العريش ورفح وقطاع غزة أن تنسحب غرب قناة السويس بنجاح . .

ولقد أثبتت معركة أم كتاف مقدرة الجيش المصرى من الناحية الفنية فقد كان التعاون محكما بين الأسلحة المختلفة ومن الناحية المعنوية فرغم الغارات ونيران المدفعية الكاسحة للعدو فإن القوات ظلت صامدة مدافعة وفى حماسة شديدة لملاقاة العدو . أما من الناحية الإدارية فقد حافظت القوات على المياه والتموين مدة أربعة أيام علاوة على المواد التموينية والأسلحة والذخيرة التى سحبت من عربات العدو المعطلة أمام الموقع نتيجة هزيمته وذلك رغم مفاجأة العدو للقوات بهجومه الخاطف . .

ولقد أثبتت المعركة أن الجيش المصرى هو جيش ضبّاط فعلا . فعلى مستوى كفاءة الضابط وروحه المعنوية وشجاعته سيكون مستوى جنوده ، ذلك لأن صفاته تنطبع انطباعا تاما على وحدته . لذلك نجد أن قوات أبو عجيلة كانت ذات حظ وفير من الضباط الشجعان الذين دمروا أعصاب القيادة اليهودية ووحداتها وافقدوها وعى القتال والحرب الصحيحة فكانت حرب انتقام وغيظ وحنق شديد فأحالوا سماء الموقع إلى نيران الصواريخ والمواد الحارقة وقنابل الايات المدفعية المجمعة خاصة على مركز رئاسة الموقع الذى كان عبارة عن ملجأ سقفه من الصاج العادى وغير مكسى بأى شئ آخر .

ولقد دارت المعركة فى أم كتاف بشدّة وقسوة لم ينقطع صوت طلقات المدافع الرشاشة فى أى وقت خصوصا فى الليل . وقد كنا فى ملجأ الرئاسة نسمع الدفعات الطويلة من جميع الجهات ، وكنا نظن أنها لصد هجوم أو لاكتشاف داوريات يهودية ولكنها كانت

تصدر من المواقع نتيجة يقظة الجنود التامة وإحساسهم المرهف . فقد كان اليهود يتبعون سياسة الحركات الخداعية ليلاً بدرجة كبيرة ، ويحركون عرباتهم على الطرق الأسفلت ويضيئون انوارها على بعد كبير ثم يطفئونها ثم تضاء مرة أخرى وكانت محركات العربات تظل دائرة طول الليل على الطرق الثلاثة أعنى طريق القسيمة ، وطريق العوجة ، والطريق الخلفى من أبو عجيلة التى كانوا يسيطرون عليها كلها .

ولقد ظللنا ليلة كاملة ساهرين لمواجهة هجوم مدرع منتظر من الخلف من جهة أبو عجيلة لأننا رأينا أنوار هذا الرتل المدّرع من بعيد يتحرك تجاهنا وأصوات الدبابات تصك آذاننا فى هدأة الليل . وبعض طلقات الرشاشات تصدر من مواقعنا نقول ظللنا ليلة كاملة على أهبة الاستعداد لملاقاة هذا الهجوم الذى طال انتظارنا له إلى أن طلعت الشمس ولم يتم .

ولا أدرى حتى اليوم . . . لماذا لم تهجم القوات المدرعة اليهودية علينا من الخلف بعد أن سيطرت على الطرق الخلفية المؤدية للعريش والاسماعيلية وانتهت معركة تقاطع أبو عجيلة لصالحها فلقد كانت فرصة ذهبية لهم أن يطبقوا علينا من الأمام ومن الخلف فى خطة واحدة ووقت واحد . . لكن لماذا لم تقم القوات اليهودية بذلك ؟ سؤال يظل بلا جواب .

ولقد كانت القوات اليهودية فى أثناء المراحل المختلفة للمعركة مكشوفة لنا فكنا نعلم تحركاتها وعناصرها من نقطة الستارة المصرية التى كانت تبعد عن الموقع الاصلى من ٤ إلى ٦ كيلو مترات ، وكان الاتصال تامًا فى المراحل الأولى للمعركة وكانت تحضيرات اليهود للهجوم مضروبة بمدفعيتنا مثلما كانت تجمعاتهم مضروبة أيضا ثم كانت الأرض امام المواقع على سعتها مغمورة بنيران المدفعية والهاونات والأسلحة المضادة والرشاشات المتوسطة التى كانت تزيد على عشرين مدفعا علاوة على الرشاشات الخفيفة والبنادق والأسلحة الأخرى .

وكانت وسائل الاتصال بنقط الملاحظة وبفصائل المواقع تامة وجيدة حتى أثناء المعركة ، كان الاتصال مع المواقع الأمامية تامًا للاسلكى وبالتليفون حيث كانت عربة الاصلاح تمر بين المواقع على الخطوط لإصلاحها أولاً بأول ، ولم تصب هذه الخطوط بطلقات المدفعية لحسن الحظ إلا نادرا وفى السرية الأولى .

وفى لحظة من اللحظات ، كنا قد قررنا أن نرسل ضابطًا بداورية لتدمير قوات العدو على طريق العوجة ليلا قبل هجومها فقد كنا نسمع أصواتها وحركاتها التى أخطرتنا بها نقطة الستارة ، ولكنا فضلنا بقاءه بالموقع لأهميته ، وخصوصا بعد أن فقدنا بعض الضباط

المستشهدين فى أوائل المعركة ، ولتيقننا بأن عربات العدو ستدمر آجلا إذا ما هجمت علينا .

وهجم العدو أكثر من مرة حتى شن هجومه الرئيسى فى ليلة ٣١ أكتوبر الساعة الرابعة فجراً وقد بدأ تحركاته هذه المرّة أمام المواقع على غير عادته إذ كان دائما ما يلتف حول المواقع ليهاجمنا من الخلف . فلماذا غير اليهود تكتيكهم وهجموا بالمواجهة ؟ سؤال يحتاج أيضا إلى جواب . .

بدأ اليهود يلقون القنابل المضيئة لإنارة مواقعنا ، واشتدت تجمعات المدفعية بدرجة مركزة على المواقع فشعرنا أنه لابد وأن يكون هو الهجوم النهائى . ورأينا قنابل مواقعنا المضيئة تنطلق فى ظلام الليل من جميع المواقع ، وانطلقت أيضا إشارات النجدة لنيران المدفعية وأخطرتنا جميع المواقع الأمامية برؤية العدو وأرتاله المدرعة منتشرة أمام المواجهة بأكملها . وانطلقت نيران مدفعيتنا لتسكت مدفعيتهم ثم غمرت العدو المهاجم أمام أسلاك مواقعنا . وفتحت جميع الأسلحة نيرانها على اليهود وانطلقت المدافع المضادة للدبابات على عربات العدو التى اشتعلت نيرانها وانطلقت قاذفات اللهب واقتحمت بعض العربات النصف جنزير الاسلاك الشائكة ودخلت بعض المواقع واشتد وطيس القتال وقاوم الجنود ببسالة وحدثت المعجزات من بعضهم وارتدت العربات التى اقتحمت السلك إلى الخلف وخرجت من المواقع ثم دمرتها مدفعيتنا المضادة وأصبح الموقع الأمامى كتلة من النار والنور ذهل فيها اليهود وتشتت جنودهم كل فرد يجرى إلى الخلف طالبًا النجاة وفقدت القيادة اليهودية سيطرتها على المعركة وبدأ نور النهار يبزغ وتحركت عرباتنا المدرعة من خلف موقعنا حاملة جميع الجنود الممكن حملهم فيها من احتياط وعساكر المراسلات والأمناء والمخزنجية وغيرهم . وتحركت بسرعة إلى المواقع الأمامية للقيام بهجوم مضاد على نقطة فى الموقع كان فيها بعض الجنود اليهود وما إن وصلت هذه العربات إلى النقطة الأمامية حتى كانت مدفعيتنا قد أصلت اليهود فى هذه النقطة نيرانها الحامية فلاذ الجنود اليهود بالفرار وتركوا جثث قتلاهم فى المواقع المصرية على غير عادتهم فلم يكن لديهم الوقت لأنقاذ غيرهم أو سحب جثثهم .

ظلت اسلحتنا تطارد فلول العربات والجنود المبعثرين فى الميدان العائدين إلى مواقعهم منكسى رؤوس الخزى والعار والهزيمة ، طأطأوا رؤوسهم والحقد والكراهية تملأ قلوبهم ثم رأينا أشتات اليهود مجمعين فى أرتال راجعين إلى مواقعهم على بعد أكثر من ستة كيلو

مترات على طريق العوجة وعلى مكسر الفناجيل يسار الموقع إذ لم يكن حظ القوات التى كانت تهاجم يسار الموقع بأحسن من غيرها .

انجلت هذه المعركة القاسية الساعة التاسعة صباحاً وقتلى اليهود مبعثرون فى الميدان بين الأسلاك وأمام المواقع المصرية وعرباتهم محترقة مشتعلة أمام المواقع . وألقى القبض على اثنين من الأسرى أحدهم جريح والآخر سليم كان مختبئا فى عربته ولقد كانت نتيجة هذه المعركة رهيبة بالنسبة لليهود الذين اعترفوا بأنهم خسروا مائة قتيل أو يزيد فى هذه المعركة علاوة على الجرحى والمفقودين وعشرات المعدات الأخرى ، وما نال قلوبهم من الشعور بمرارة الهزيمة فى معركة حربية نظيفة لم تتكافأ فيها القوتان إطلاقا أودت بما حققوه من انتصارات زائفة قبل ذلك حيث لم يكن ليقابلوا قوات مصرية فيها أبدا كما لمسوا فيها تداعى آمالهم العريضة التى يحلمون بها على ضفاف النيل بوسائل الغدر والخداع ، فقد قابلوا جيشا مصريا كفء ردهم على أدبارهم وسوف يردهم كذلك أبد الآبدين إن شاء الله . كما سقطت دعايتهم أمام العالم وحلفائهم على الأخص بضعف الجيش المصرى وسهولة القضاء عليه وباءوا بالخزى مع الفشل فى تنفيذ الخطة المشتركة فى الوقت المطلوب .

ومما يثير الدهشة أن موقع أم كتاف كان عرضة لاستكشاف العدو الجوى ودورياته الأرضية وجواسيسه المختلفة سبع سنوات كاملة كان المفروض بعد ذلك أن تكون لدى اليهود خريطة مفصلة كاملة عن جميع مواقع الأسلحة المختلفة فيه ، لكن الذى حصل هو أن قوات اليهود المدرعة فوجئت بنيران المدفعية المضادة للدبابات مما أدى إلى انهيار موجة الاقتحام الرئيسية وانكسار خط الهجوم الأساسى بشكل شتّت الجنود من فوق العربات إلى الخلف طلبا للنجاة والنجدة فلقد تعطلت جميع العربات عدا اثنتين اقتحمتا الموقع وانسحبتا فوراً واشتعلتا بمن فيهما ، وهرب بقية الجنود . ولقد وجدنا بعض هذه العربات دائرة والبعض الاخر واقف لم تصبه طلقة ولكن هجرها أصحابها ولم يتابعوا التقدم .

ولقد تعجبت لانتشار عربات اليهود على مواجهة الموقع فى رتل منضم ، وبجوار بعضها البعض دون مراعاة للانتشار .

ولم تشترك مدفعية العدو أثناء الاقتحام بضرب المواقع الخلفية كالمفروض حتى تمنع الإمدادات الخلفيَّة فقد أوقفت المدفعية الضرب نهائيا قبل الاقتحام بوقت كبير . كما لم يشترك الطيران الإمرائيلى فى معاونة القوات المهاجمة عند أول ضوء .

وإنى أعتقد أن المشاة لم يكن لها أثر فى المعركة فقد ظلت قاذفات اللهب الفردية تطلق نيرانهـا على بعض المواقـع وقام بعض الجنود وكانـوا قلة بالهجـوم على المواقع ولكـنهم لم يستمروا فوق الموقع دقائق معدودة حتى قتلوا أو ارتدوا اللهم إلا فى موقع السرية الثالثة الذى تمكن بـعض اليهود من احـتلال موقع فصـيلة منه ولكـنهم لم يسـتمروا على الموقـع حيث أصلتهم مدفعيتـنا بنيرانها ولحقـتهم عرباتنا المدرعة تحـمل جنود الهجوم المضـاد فلاذ اليهود بالفرار وأصبح ميدان المعركة خاليا إلا من مصفحاتهم المشتعلة وجثث قتلاهم المبعثرة .

وأعدنا تنظيم انفسنـا ، وجردنا الذخيرة الباقية فوجدناها قليلة فقد نفذت ذخيرة الهاون والرشاشات المتوسطة وبعض القنابل الأخرى بينما توفرت قنابل المدفعية .

وجردنا التموين الذى لم يبـق منه إلا القلـيل وكذا بعض الميـاه القليلة المخـزونة فى فناطيس بمنطقة الشئون الإدارية .

ثم حصرنا أعداد الشهداء والجرحـى فكانوا قلة بالنسبة لهذا الهجوم الضخم .

ولم نكد نبدأ فى تنظيم مواقعنا من جديد وإعادة إمدادها حتى ظهرت الطائرات الميستير فى الجو بالأسراب . . وكانت الساعة ١٢ ظهرًا عندما راحت تضرب مواقعنا وتحرق العربات اليهودية التى لم تشتعل قبلاً بـالصواريخ وغيرها ، وذلك فى نفس الوقت الذى كنا نحاول فيه سحب هذه العربات التى كانت بها أسلحة وذخيرة ومواد تموينية ومياه وغيرها .

ولم تتركنـا الطائرات الميستير ننفذ ما أردنا فـقد كان الهجـوم شديدا جدا عـلاوة على ضرب مدفعية العدو المتوسطة لمواقعنا .

وفى هـذه الاثناء حضـر العقيـد مصطفـى الجمل قـائد آلاى المدفعـية وقرر إنه أصـبح مكشوفًا فى منطقته الخلفية وإن الرتل المدرع اليهودى فى تقاطع أبو عجيله سيصله حتما بعد قليل ويدمره نهـائيا ، واقترح أن يدخل بمدافعه فى قلب الموقع حيـث يجد الأمن ويستطيع الدفاع عن نفسه .

ولم يكن أمامـنا إلا الموافقة رغم ضيق الموقع لاسـتيعاب آلاى مدفعية بالـكامل خاصة وأنه لم يكن قد نظّم الموقع من قبل على هذا الأساس . ولكـن جاء الآلاى بعرباته الكبيرة الكثيرة ومدافعه وتسبـب فى ازدحام الموقع الخلـفى بالقرب مـن مركز الرئاسة . وتـكدست عرباته المحملة بالذخـيرة ومدافعه فى رقعة ضيقة جدا ، مما لفـت نظر اليهود فـأمطروا هذه المنطقة بقنابل الطائرات والمدفعية حتى اشتـعلت معظم عربات الذخيرة وتعطّل بعض المدافع

وأصبح مركز الرئاسة فى وسط جحيم من النيران إذ راحت القنابل تتساقط بكثرة على بعد أمتار حول مركز الرئاسة .

ظللنا على هذا الحال حتى الساعة الواحدة والنصف ظهرا حتى وصلنا قائد اللواء الأميرالاى سعد الدين متولى وأراد الاجتماع بقواد الكتائب وقواد ثوانى وباقى القواد وحضرنا الاجتماع وقرر قائد اللواء انه لم يرى بسالة ولا شجاعة مثل ما رأى من هذه القوات وإنه لفخور بتولية رئاسة هذا اللواء ثم قرر أنه خيِّر بين البقاء والانسحاب المنظّم على الأقدام حيث أتم العدو حصارنا من جميع الجهات فتقرر الانسحاب . وانقسمت القوات إلى ثلاث مجموعات كل مجموعة لها قائد وضباط ونشرت الخرائط ورصدت الزوايا وتقرر السير فى أول مرحلة أربعين كيلو مترًا حتى بئر لحفن ، وتحدَّدت ساعة البدء لأول مجموعة السادسة والنصف مساء .

الانسحاب

جمعنا قواد السريا وأخطرناهم بقرار الانسحاب فحزن الكثير واستمعنا للراديو فعلمنا الموقف العام وكان الانسحاب هو الفرصة الوحيدة للنجاة والإفلات من الموت أو الاستسلام حيث إن الذخيرة أمست لا تفى معركة أخرى خصوصا وأن القواعد الخلفية للقوات فى سيناء كانت قد سحبت ولا يمكن البقاء فى المواقع دون تموين أو ذخيرة .

كان قرار الانسحاب أخطر قرار صدر فى هذه الظرف التى جعلته حتمًا ، وكان مجازفة جريئة للأفراد واختبارًا قاسيًا لقوة تحملهم وصبرهم على الجوع والعطش والإرهاق للسير مسافة أربعين كيلو مترًا خلال التباب الرملية الناعمة العالية البيضاء المسماة بمكسر الفناجيل وكان عليهم أن يقطعوا الوديان الكثيرة التى تجوسها داوريات اليهود وتقف على مخارجها قواتهم الميكانيكية .

أقول الحق أنه لم يدر بذهن أحد تلك الأهوال التى صادفناها فى الطريق ، كما لم يدر بخلد أى فرد طول المسافة مع قلّة الماء والطعام وسائر المتاعب والمشاق .

ولكن عزيمة الأفراد كانت من حديد وتصميمهم جبارًا لا يقف دونه حائل .

وصدرت الأوامر بأن لا يذاع أمر الانسحاب إلا بعد أخر ضوء . ولأول مجموعة فقط ، وأنه يجب تدمير جميع العربات والمعدات الثقيلة أو حرقها قبل الانسحاب على أن يحمل الافراد أسلحتهم الشخصية وذخيرتها لاستخدامها عند اللزوم ، وأنه يجب على الأفراد كذلك حمل ما خف حمله من التعيينات والمهمات مع حرق جميع الأوراق والمستندات المهمة قبل الرحيل .

وتقرر أن تبقى مجموعتان فى مواقعهما لستر انسحاب المجموعة الأولى وهكذا . ولكن سرعان ما ذاع خبر الانسحاب وكنا قد قاربنا الرابعة عصرًا وبدأت الجنود تتجمع استعدادًا للأنسحاب ، ونشط الأفراد فى تكسير وتخريب العربات وحرق المهمات فزادت الحرائق بالموقع خاصة فى منطقة المدفعية .

لذلك بذلنا جهدًا كبيرًا لوضع الأمور فى نصابها حرصا على بقاء الخطة صالحة للتنفيذ وحتى لانكشف عزمنا على الانسحاب .

ولقد ساعدتنا الأقدار فى إخفاء استعدادنا للانسحاب فلقد تسبب قصف طائرات العدو ومدافعه لمواقعنا فى اشتعال النيران فى عدة عربات للذخيرة ومنها ذخيرة المدفعية فكانت تنطلق تلقائيا أثناء الاستعداد للانسحاب وأثناء الانسحاب الفعلى مما خدع القوات اليهودية بأن الموقع حى بأفراده ويطلق النيران ، إذ ظل صوت الطلقات المشتعلة يستر انسحابنا حتى ثانى يوم ، فلما قامت قواتنا بإشعال النار فى معداتنا لم يكن ذلك ليكشف عملية الاستعداد للانسحاب ، وأغلب الظن أن اليهود كانوا مغتبطين لزيادة الحرائق فى الموقع ، ولم يدر بخلدهم أنها عملية تدمير لعتادنا تمهيدًا للانسحاب . ولقد طارت فوق المواقع الساعة الخامسة مساءً طائرة استكشاف وطائرات ميستير أخرى لا أدرى لماذا لم تلاحظ عمليات تجمّع الأفراد وعمليات التدمير التى كانت دائرة على قدم وساق .

أغلب ظنى أن اليهود لم يشعروا أننا نستعد للانسحاب ، أو أنه يمكننا أن ننسحب خصوصا وهم محيطون بنا من جميع الجهات ، علاوة على أن أقل مسافة يتعيَّن على الوحدات أن تسيرها لأقرب موقع مصرى هى أربعين كيلو مترًا ، أعنى موقع بئر لحفن .

والواقع أنهم لم يعلموا أن القوات فى أم كتاف انسحبت يوم ١/ ١٠/ ١٩٥٦ لأن الموقع ظل يضرب طلقاته الصغيرة والكبيرة نتيجة احتراق صناديق الذخيرة كما قلت طوال هذا اليوم واليوم التالى .

ولذلك أيضا لم يدخلوا الموقع فى عصر اليوم التالى ٢ نوفمبر ، إلا بخطة تكتيكية كاملة على اعتبار أن المواقع مازالت حية أو نتيجة لخشيتهم وخوفهم من العمليات الفاشلة .

أو ليقال . . إن الموقع هوجم ثم هزم ليصنعوا من احتلال موقع خالٍ من القوات أسطورة يترنمون بها فيما بعد .

الخطو نحو المجهول

كنت فى مجموعة الانسحاب الثانية بما يعنى أن تكون المجموعة جاهزة عند البوابة الخلفية للموقع الساعة السابعة إلا الربع مساءً وسرنا على الطريق الأسفلت بضعة أمتار تاركين الحرائق متأججة فى العربات ، وأصوات الذخيرة المشتعلة تدوى فى الفضاء . وعندما أرخى الليل سدوله ونحن نمر بجوار بعض هذه الحرائق رأينا أشباح الأفراد الذين سبقونا بجوار هذه النيران المشتعلة واضحة كأنهم على شاشة حمراء .

كانت أعصابنا متيقظة لكل شئ ومنتبهة لأية حركة ، وشملنا إحساس بضرورة الابتعاد عن نظر ونيران العدو بشكل كبير جدًا حتى إننا كنا نمر خلال الوديان فنرى الأنوار الكاشفة لدبابات العدو تغمر هذه الوديان بالأنوار فكلما وقع الشعاع تجاهنا نرقد صامتين حتى يبتعد الشعاع فنواصل السير .

كنا نود فى هذه الليلة أن ننهب الأرض نهباً حتى لا يبزغ علينا فجر اليوم التالى إلا وقد بعدنا بالمسافة الكافية التى تضمن لنا الأمان .

لقد كان سيرًا مرهقًا جدًا والوقفات قصيرة للغاية . وتقدم الرتل أربعة من خيرة الضباط هم البكباشى اسماعيل صبرى والملازم مصطفى عبد الكافى والبكباشى طلعت عابدين وأنا ، ثم مجموعة من ضباط الصف منهم الباشجاويش حسن مطر والأمباشى سائق عطش ، كحملة القماقم للمحافظة على اتجاه السير ، وغيرهم يعد الخطوات حتى نعلم كم سرنا بالكيلومترات ، وهى مهمة شاقة ودقيقة .

كان خط السير يضطرنا أن نقطع الوديان عموديا بأجنابها الشاهقة وعلى حواف رمالها الناعمة فكنا نتساند على بعض ونشد بعضنا عند قمة هذه المرتفعات . وما يكاد الواحد منا يصل إلى القمة حتى يرتمى على الأرض من شدة التعب وانقطاع النفس بل إن قلب الإنسان يكاد يتمزق فقد كان الجهد شديدا على القلب وعلى جميع أجزاء الجسم .

وقد زاد من عناء هذا السير انعدام المياه فى الطريق فلا آبار ولاخيام للعرب يمكن الغروج عليها ، ولقد حدث لى شخصيا قبل الانسحاب وأنا فى الموقع أن ملأت الزمزمية وكذلك

علبة كانت فيها أحذية ملأتها (بالـكيك) وكذلك البالطو ،وأعطيت هذه الأشـياء جميعًا للمراسلة وأمرته بالتحـفّظ عليها لعلَّها تنفعنا أثناء الـسير . فكمـا سرنا كنت أنـادى على المراسلة فكان يحـضر ومعه هذه الأصناف وكما كنت أتمم على هذه الاشيـاء فى كل وقفة ، كنت كذلك أتمم على الدكتور يوسف عطا الله حيث كان متعباً للغاية فهو طبيب الوحدة ذو السنتين خدمة ولم يتعوَّد على مثل هذه الأمور أو سار طيلة حياته مثل هذا السير الشاق الذى أنهكه ، وكان معه أمبـاشى يحمل حقن استركنـين وكورامين فلما شعر بوطـأة التعب أخذ حقنة كورامين وأخذت أنـا أيضًا حقنة استركنين وذلك أثناء وقفة مـن وقفات السير . وفى هذه المرَّة طلبت المراسلة وسـالته عن المياه فقال إن الزمزمية وقعت منه أثـناء السير . فسألته عن (الكيـك) فقال أن العساكـر أكلوه فكانت مـفاجأة مزعجة إذ إننا مازلنا فـى منتصف الطريق ، إن لم نكن فى أوله والله أعلم .

وبدأت الذاتية تدب فى نـفوس البعض الذى أهمَّته نفسه حتى ولو سـقط الباقون أثناء السيـر من الجوع أو العطـش أو الإنهاك . ولا تعـجب من هذه التـصرفات إذا تذكرت أن الطريق وعر وطـويل وكل فرد يهمه أن ينهـب المسافات ليصل مبكرًا إلى بئر لحفن حيث المحطة الأولى . وراح الأفراد يتساقطون فى الطريق من المجموعات الثلاث ، وكنا نمر عليهم فنجدهـم نائمين من شدة التعـب . . وكان النائم يصحـو فلايجد أحدًا حوله فـيهرع ليلحق بزملائه على خط سير القـوات المنسحبة . . مسترشدًا بآثارهم على الرمال الـواضحة جدًا ، وكان القمر ساطعًا مما سهَّل مهمة قص الأثر .

ولقد تناولت حقنتين من الاستركنين والكورامين اثناء الطريق لشدَّة تعبى ، خاصة وقد حرمنى المراسلة من الزاد الذى كنت معتمدا عليه ، كما حرمنى من الماء الذى ينعش الروح الميتة والحلق الجاف الملتهب ، وظللت أسير دون مياه حتى تقابلت مع الإخوان على بئر مياه فى لحفن فى منتصف الليلة التالية بعد أن كادت تزهق أنفاسى من شدة العطش . .

نعود إلـى السير مـرة أخرى ، فسرنا حتى بـزغ الفجر علينـا ونحن قـرب بئر لحفن تقريبا ، أى قطعـنا ما يقرب من خمسة وثلاثين كيلـو مترًا فى ست ساعات هبوطًا وصعودًا على مرتفعات وكثبان رملية ناعمة .

ونقصت المجموعات الأصـلية وأصبحت أقل عددًا إذ لم يعد فـيها غير القادرين سويًا على متابعة السير ففقدنا أصدقاءً كثيرين وإخوانًا أعزاء . وعند طلوع الشمس رأينا الطائرات

تحوم فوق رؤوسنا فكنا نلجأ للاختفاء فى الأعشاب المنتشرة بالوديان وغيرها . وظلّت هذه الطائرات تروح وتغدو فى السماء من رفح إلى العريش وبالعكس تدك بالقنابل كلتا البلدتين وكنا نسمع دك القنابل . ظلّت هذه العملية طوال النهار وابتدأت الشمس تحمر ونشعر بحرارة الجو فكان لابد لنا من خلع النعال لسهولة السير وتخفيف الثقل علينا فى هذه المرحلة تفرّقت الجنود إلى وجهتين : فذهبت إحداهما فى اتجاه الطريق الأسفلت المؤدى إلى العريش عند نقطة البوليس الحربى ، بينما راحت الأخرى تلف حوف مواقع بئر لحفن ثم الطريق الأسفلت بعدها وقد ذهبت أنا فى الطريق الثانى ، وأغلب ظنى أن الذين اختصروا الطريق وساروا فى الطريق الأول كان نصيبهم الأسر أو القتل حيث إن الطريق كان مفتوحا لعربات اليهود من تقاطع « ابو عجيلة » إلى بئر لحفن .

سرت فى الطريق الآخر وهو طريق طويل عن اختيار ، واتبعت وادى العريش المخيف الملتوى الجاف ولكنه كان مستورًا . وقابلنا الزميل زكريا خليل الذى اتفق مع زميل آخر على استئجار جمل لى وله . وانتظرت طويلاً حتى الظهر ولكنه لم يحضر فسرت وحدى . . سرت وحدى فى هذه المرحلة وأنخنت نفسى بالسير فى وادى العريش ، وكنا نحن المنسحبين نتقابل ونفترق وهكذا حتى حل بى العطش إلى الدرجة القصوى وعضنى الجوع ، ولم تنفعنا أى شجرة قابلناها فى الطريق حتى شجر التين فقد كان يلوح لنا أن حوله بعض الماء أو الأكواخ ولكنا كنا لا نجد إنسانا حولها . . فحاولنا أكل الورق الأخضر الصغير من هذه الأشجار ولكنه كان جافا حادًا كالشوك فى حلوقنا الجافة أيضا منذ يومين . رأينا بعض حبات التين الصغيرة فقلنا نتبلّع بها ، وقد كان مذاقها مرًا لاذعًا إلاّ أنها ملأت فراغ بطوننا - واشتدت الشمس علينا وأصلانا الظهر بقيظه رغم أننا كنا فى نوفمبر فأخذ منّا العناء والإنهاك كل مأخذ ، حتى إن الإنسان كان يسير عشرة امتار فيجد نفسه مرهقا غير قادر على السير فيرتمى تحت أى عود من الشجر فى هذا الوادى حتى إذ ما استرد أنفاسه قام ليخطو عشر خطوات أخرى قبل أن يتعب ويرتمى على الأرض . . وهكذا .

ولذلك فإن هذا الوادى قد امتلأ بملابس الجنود المتعبين من حملها ، وكذلك بعض المهمات الأخرى الثمينة . . متكسرة أو مخلوعة أجزاءها أو غير ذلك .

كان المهم أن نقطع المسافات حتى نصل إلى بئر المياه فى لحفن ، ولحقنى أحد الزملاء فى منتصف الطريق وكانت معه بوصلة فمشينا معًا حتى إذا جن الليل نشطنا بفضل

البرودة . ورصدنا الطريق الأسفلت حيث رأينا بعض العربات تمر عليه من بعيد . وسرنا على الزاوية بالبوصلة ولكن المسافة كانت أطول مما نظن فاضطررنا إلى التقدم بعض الوقت وقمنا بنشاط حتى وصلنا إلى الطريق الأسفلت ، وكانت الساعة حوالى منتصف الليل .

فى الواقع فوجئنا بالأسفلت ونحن عنده ، وكنا نعتقد أنه مازال بعيدًا ، وقد نفعتنا هذه البوصلة كثيرا ًحيث أراحتنا من الاعوجاج فى السير .

وعندما وصلنا إلى الطريق الأسفلت وجدنا أنفسنا قبل موقع بئر لحفن فهرعنا إليه لنجد أفواج الجنود المنسحبة تعج بهذا الموقع الخالى الذى انسحبت منه قواتنا بالأمس . وحتى لانضيع الوقت سألنا عن مكان بئر المياه فهرولنا إليه وسمعنا ضجيج الجنود فى هدأة الليل عند البئر . انفتحت أسارير الحياة لنا على مصراعيها وفرحنا فرحًا بالغًا فقد رأينا الماء بعد ٤٨ ساعة من تركنا الموقع . وكان الزحام شديدًا للغاية على الماء ووجدت زكريا خليل زميلى على قمة البئر يدافع بمنكبيه وبجسمه كله لينظم عملية الشرب بين الجنود ، وكان أحدهم قد نزل فى البئر ليناول زملاءه وكان بطلا مجهولا لاأعرف اسمه للآن . إنه أحد الأبطال المجهولين فلقد ظل وهو على حاله هذا يسقى آلاف الجنود المهرولة إلى هذا البئر وشربنا كثيرًا من المياه على قذارتها وتلوثها ولكنها كانت ألذ شربة ماء فى حياتى وأسعدها أثرًا فى نفسى ونفس كل مخلوق . وتحولنا لبئر آخر بجانبه وشربنا منه أيضا رغم أنه كان مليئًا بالديدان والتراب . ولكن ماذا نفعل والعطش جبار والحياة جميلة ، المهم أننا شربنا حتى ارتوينا .

فى هذه الأثناء قابلنى البكباشى طلعت عابدين والملازم الاحتياط عبد الكافى بعد انفصالهما عن زملائهما فترة وسألونى هل تركب جملاً ونكون سويا فى الرحلة . فقلت لهم أين أين هو الجمل . نعم طبعا (ياريت) يكون فيه جمل .

المهم اتفقنا على أن نكون سويا وكان معهم جملان ناقة لا صاحب لها وجمل مؤجر من رجل إعرابى أجرَّه أحد الزملاء ولم نعثر عليه فى ظلام الليل رغم بحثنا عنه كثيرا عقدنا العزم نحن الثلاثة ضباط ومعنا عسكرى من وحدة البكباشى طلعت عابدين وملأنا جراكن مياه وتركنا منطقة الآبار إلى الطريق الأسفلت . وهناك عند بوابة موقع بئر لحفن وكانت الساعة الثانية صباحا بحثت عن البكباشى على عبد الخبير قائد كتيبتى - ليركب معنا الجمال

ولكن لم أجـده ووجدت الأركان حرب اليوزبـاشى عباس فركبـته الجمل الذى خصـنى فلم نتمكن نحن الاثنين من ركوبه حيث كان صغيرا لايصلح لركوب أكثر من فرد واحد ولذلك قرر هو الانـسحاب وبدأت الجـمال تسير وفـى هذه الوقفة تجـمع حولنـا جنود كثيرون من المنسحبين فأمرتهـم بعدم المبيت هذه الليلة فى بئر لحفن حيـث لابد وأن اليهود لاحقون بهم بين دقيقة وأخرى ، وأمرتهم بالسير فى اتجاه العريش .

تحركت قافلتنا يدلها الإعرابى الدليل واتجه بنا جنوب بئر لحفن فـى اتجاه الغرب إلى جبل رويس القط ولقد وجـدت بطاطين كثيرة ملقاة على الأرض من متـخلفات الجنود وكان الجود باردا فالتقطنا بعـضها وتلفحنا بواحدة على أكتافنا وسارت الجمـال تقطع الصحراء ليلا ووراءنا جمع كبير من الجنـود الذين استمعوا لنصيحتى حتى اختفينـا فى جبل الرويس على بعد ٣ كـيلو مترات تـقريبا من الـبئر ، وكنا نسـمع أصوات الجنود المـتزاحمين علـى المياه وصراخهم ومناداتهم لبعض لأن الأصوات تسمع لمسافات طويلة فى الليل .

هجعنا محل وصولنا وانتوينا النوم حتى قبل أول ضوء ثم نتابع السير إلى قرية مزار ، وهكذا كان الاتفاق مع الدليل العربى . ولكن راحت علينا نومة وظلعت الشمس ومازلنا فى مكاننا حـيث سمعنا أصوات دبابـات اليهود وعرباتهم تعـج حول موقع بئر لحفن ثـم تلتها أصوات المدافـع الـرشاشـة وأصـوات الافراد فحـزمنـا أمتعتنـا بسرعة وذعـر الدليـل العربـى الـذى لبـس (خفه) وانتـهز فرصة انشغالنا بأنفسنا وأخذ جملـه وجرى به واختفى عنا فى لمح البصر ، فلم نعثر عليه بعد ذلك على الإطلاق ، وأفلتت منا فرصة ذهبية هى دليل معه جمل كان يسهِّل علينـا عملية السير ومعرفة الطريق ، ثم الراحـة فى ركوب الجمل وأصبحنا ثلاثة ضباط وعسكرى مع ناقة واحدة .

حمـدنا اللـه علـى أى حال ولم نترك الوقت يسـرقنا حيث كانت أصـوات الدبابات تتجه إلى مـكاننا فى الجبل أو قل كان يتـهيأ لنا ذلك ، وشعرنا أن الدبـابات قادمة بين آن وآخر خصوصا وقد كان حولنا رهط كبير مـن الجنود كـان القبض عليهم يعتبر غنيمة كبيرة لذلك أمرنا الجنود حولنا بالانتشار ومتابعة الـسير فورًا ، والسير فى مجموعات صغيرة حتى تقل الإصابـات إن كـانت هـناك غارات أو غـيره وحتـى لانلفت نظر العـــدو إلـــى حشودنا الكبيرة .

سرنا وحدنـا بالناقة دون دليل إلـى الجنوب قليلا لكـى نتفادى الطرق المطـروقة وفعلا

غابت عنا اصوات الدبابات والعربات اليهودية وصعدنا فوق التلال الصفراء ورأينا طريق العريش عن بعد ومطار العريش والبحر بعيد جدًا .

وتبعنا عسكرى آخر خلاف الذى كان معنا وكان اسمه معبد والتصق بنا التصاقاً فضممناه إلى مجموعتنا واطلقنا عليه اسم متعب تدليلا منا وكان هذا الجندى فكاهتنا طوال الطريق إذ كان خفيف الظل روّح عنا كثيرًا من عناء السفر وأعاننا على مشاكلنا الإدارية فى جلب الماء من الآبار وفك وربط الجمل هو وزميله الآخر . توكلنا على الله فى السير وقدرنا اتجاهنا وقررنا ألا تغيب العريش عن ناظرنا حتى لا نتوغل فى جوف الصحراء دون مبرر .

كانت الأرض رملية علكية بها مدقات كثيرة محيرة ولذلك قررنا قطع المسافة رأسا جنوب العريش أولاً كأنها زاوية بوصلة وبذلك أجهدنا أنفسنا واشتد بنا الظمأ رغم وجود جيركن مياه معنا ولكننا كنا نحسب حساب الوقت . وحرقتنا الشمس فى هذا الجبل وحاولنا عبثًا العثور على شجرة كبيرة أو ما يقينا لفحة الشمس فكان نادرًا وكنا نتجمع بجوار شجيرة صغيرة لها نصف متر ظل تقريبا كى نوارى رؤوسنا فقط فى هذا الظل وكنا نحفر فى الرمل الساخن حتى نصل إلى قاعه الرطب اللطيف فندفن رؤوسنا وأطرافنا وصدورنا حتى نشفى غلة الحرارة ، ويعوضنا بعضًا من شرب الماء .

جفت حلوقنا وتذرعنا بالصبر الجميل . . ولكن ماذا نفعل بالناقة ؟ . وما ذنبها معنا فى هذا الحر اللافح والجوع الشديد ، علما بأننا لو أطلقناها لحالها لرعت وخدمت نفسها بنفسها .

قاربت الشمس الزوال وتابعنا السير حتى وجدنا معجزة أمامنا ، إذ دخلنا فى حقل بطيخ أو سمه آثار حقل بطيخ تتناثر فيه بضع الشجيرات الخضر أو الباهتة ووجدنا ما يشبه (القتة) ففرحنا وهللنا وكبرنا وحمدنا الله ونعمه وفضله وجوده وكرمه فقد كانت هذه الثمار طعاما وبردًا وسلاماً فى حلوقنا فى فترة حر عصيبة . . أكلناها وأكلنا قشرها الذى التصقت به رمال كثيرة .

كانت هذه أشهى أكله تناولتها ، كما كانت بداية فأل سعيد لنا ارتاحت لها نفوسنا وشجعتنا على متابعة السير واعتقدنا أن الله سيجعل لنا من بعد عسر يسرًا وأنه سبحانه وتعالى معنا لاشك فى ذلك .

أمدتنا تلك الوجبة بالقوة على النهوض والنشاط والجد فى السير حتى قاربت الشمس المغيب حيث شاهدنا ولدين إعرابيين ففرحنا وقلنا جاء فرج الله وبعث رسله إلينا وفعلا قابلنا هذين الولدين واتفقنا معهما على أن يرشدانا إلى محل بيتهم أو إلى أقرب بيت وسوف ينالان منَّا مبلغًا كبيرًا وهدايا أخرى .

فوافق الولدان وسارا بنا مسافات طويلة حتى أوصلانا إلى « بئر المسمى » فى منتصف الليل تقريبا ، وهناك وجدنا اشجارًا كثيفة عالية كثيرة وآلافا من الجنود المنسحبين قاعدين فى مجموعات كل مجموعة معها بعض الأعراب ووسطهم نارا موقدة للتدفئة مع الأحاديث المختلفة . كان نصيبنا عند رجل طيب من قبيلة السواركة وكان تقيا يعمل بالتليفونات فى الحكومة المصرية ولا أذكر اسمه . أحاطنا هذا الرجل ومن معه بعناية ورحب بنا أجمل ترحيب وأحضر لنا شايا وأوقد نارًا وشربنا ماءً كثيرًا عذبا وحلوًا من هذه البئر واستمتعنا بالشاى بعد أربعة أيام من مغادرة بئر لحفن وأحضر لنا أرغفة من الشعير الأسمر بقشرة . لم نفحص فى الواقع أى شئ مما قدم لنا فقد كان الجوع شديدًا والعطش أشد والحاجة إلى الدفء كبيرة .

أسلمناه الناقة وأحضر لنا مشمعًا كبيرًا نمنا تحته حتى الصباح .

كانت هذه أول مرة أنام فيها ملء الجفنين وأنا مرتاح النفس آمن . وأول مرة أشعر فيها بالدفء منذ أول يوم للمعركة التى لم نكن أنا والقائد والأركان حرب الموجودون فى الملجأ ننام اللهم إلا « تعسيلة » خاطفة على الكراسى والسراير بالدور يوقظنا فى كل دقيقة أو أقل جرس التيفون لنتلقى الإشارات والبلاغات من المواقع المختلفة ونتابعها بإصدار الأوامر والتعليمات وهكذا .

لم أنم إلاَّ فى هذه الليلة عند بئر المسمى ، وكذلك نام إخوانى .

واستيقظنا في الصباح وقررنا أنه لابد لنا من دليل يرشدنا إلى القنطرة رأسا ، وبذلك يسهل علينا السير خاصة بالليل وهو أنسب الأوقات لقطع المسافات الطويلة لرطوبة الجو وليونة الأرض ، ولذلك ما إن رأينا صاحب الأمس حتى أخبرناه بحاجتنا إلى دليل فراح يبحث عن دليل . وفي هذه الاثناء طلبنا الناقة لتحميلها فقيل لنا إنها « شردت » أى سارت فى الصحراء ولا علم لأحد بها . هنا ثارت ثائرتنا وقدرنا المسئولية الواقعة على عاتق

الإعرابى صاحب الأمس وأنه لابد واجدها وأننا سوف لا نتحرك حتى تحضر الناقة . قلنا هذا وكان معنا أكثر من رشاش وطبنجة للدفاع عن أنفسنا وبعد ساعة تجمع حولنا كثير من الأعراب والسماسرة ثم شاهدنا صاحب الأمس يسوق ناقتنا الحبيبة إلينا فكانت نجدة اخرى جميلة من الله .

حمَّلنا الناقة ومر بنا أكثر من رجل يملؤهم اللؤم والمكر لا تعرف ماذا يقصدون ولاتستطيع أن تنال منهم أى مساعدة أو رجاء . وأخيرًا عرض علينا صاحب الامس شابًا أسمر وقال لنا ان هذا تطوع لإرشادنا حتى بئر العبد بأربعة جنيهات تدفع اثنين له ليسلمها لأهله ليأكلوا منها ، والاثنان الباقيان عندما نصل إلى بئر العبد ، ففرحنا وشكرنا الرجل جهده وجميله وأعطيناه عنواننا بالقاهرة ليتفضل مشكورًا بزيارتنا وأفهمناه أننا على استعداد لمعاونته فى أى خدمة .

كان الشاب العربى المرشد تقيًا ويتدلى من يده سبحة سوداء فاطمأنت لذلك قلوبنا إليه ، وظل يحدثنا فى الطريق عن الاستقامة والدين والله والرسول ويدلى لنا بالمواعظ المختلفة ونحن حامدون الله شاكرون له فضله أن بعث الينا برسول من عنده يهدى إلى الرشد ويرشدنا إلى طريق بئر العبد .

اشتد بنا الجوع أثناء الطريق فأخطرناه بذلك فعرج بنا على خيام قال لنا إنها لأقربائه وأن المنطقة التى نسير فيها من دائرة اختصاصه وأهله . أعطيناه جنيها أحضر به فرختان قامت بطبخها مشكورة إحدى قريباته فى حلّة سوداء بعد أن قطعتها قطعًا مختلفة من الأجنحة والأرجل المملحة لدرجة عالية مع بعض الماء الأصفر الشديد الملوحة أيضا وبعض الأرغفة من الشعير الأسود ، وكثيرًا من العجوة المرملة . أكلنا وحمدنا الله على ذلك فقد كان ذلك أول لحم يدخل بطوننا بعد مدة طويلة واعتبرناها وليمة الرحلة الكبرى .

تابعنا السير حتى اصفرت الشمس وأذنت بالرحيل فعرج بنا على بعض الخيام وهناك وجدنا امراتان إحداهما عجوز ظلتا تناوشه فى الكلام وتراوشه كما ظلت الأخرى تداعبه بالألفاظ ويداعبها . المهم انه استخرج لنا من عندهن شايًا وسكرًا وشربنا وحمدنا الله كثيرًا على شاى العصر هذا كأننا فى إنجلترًا .

انشرحت صدرونا لهذا الترحاب من الأهالى وتفضل الله علينا بأن هيا لنا الدليل اللبق الماهر .

تابعنا السير حتى جن الليل علينا واستنهضنا همة الدليل وأخطرناه أننا نريد أن نسير الليل كله حتى نصل بأسرع وقت . فوافقنا على ذلك وما أن بدأنا مرحلة حتى أراد الوقوف والمبيت حتى تبزغ الشمس فقلنا له إن الليل أحسن للسير من النهار فتظاهر بالرضا وبدأنا مرحلة أخرى حتى عاد يقول لنا أن اليهود قريبون من هنا وأنه يلزم الاحتياط واتباع الحذر ، ولذلك فإنه سيسير أمامنا على أن يتبعه أحدنا خلفه ببضعة خطوات ثم يليه آخر وهكذا فوافقناه وابتدأ السير حتى عاد يقول لى هات الطبنجة التى معك فسألته لماذا ؟ فقال لأدافع بها عن نفسى إذا قابلنى اليهود ، فقلت له إننا معك وخلفك وهذه صناعتنا الحرب والضرب فلا حاجة لك إلى الطبنجة فقال : إذن أنت تخوّننى . أنت لا تثق بى قلت له اترك موضوع الثقة والخيانة وقم بواجبك المأجور له وهو إرشادنا إلى الطريق فقط وليس لك أى شئ آخر خلاف أجرك ، « فإذا قابلنا اليهود ستجرى حضرتك إلى أهلك أما نحن فنضطر إلى استعمال الأسلحة الموجودة معنا » .

فغضب وسار أمامى وبدأ يجرى وسط كومات الحشائش وكان الليل بهيما فأخذ يظهر ويختفى أمام عينى وأنا أسرع وراءه ولكنى بعدت عن باقى القافلة التى تسير ببطء حسب سير الناقة فناديت على الدليل فوقف . حتى اقتربت القافلة وأخبرتهم بموضوع هذا الدليل . فأكدنا عليه أنه لابد أن يسير معنا على راحتنا لأن الناقة بطيئة ونحن مجهدون من السير الطويل السابق .

فقال إننا لابد أن نتابعه وأنه سيقوم منتصبا إذا رأى أى خطر أمامه وعلينا ان نفعل مثله . وزعم أن اليهود على بعد أمتار منا وأحاط نفسه بنطاق من الخوف والهلع أو هكذا صور لنا حتى أطمأننا إليه وقررنا السير .

سار أمامى وأسرع مرة أخرى فى السير حتى صعد فوق تبة عالية وعند وصولى إليها لم أجده أمامى . . ناديت عليه فلم أجد سميعا ولا بصيرا . اختفى مرة واحدة بين الحشائش العالية قليلا فى منتصف الليل .

ظللت واقفًا مكانى فإن السير فى الليل يختلف عنه بالنهار ، ولو تحركت أى خطوة سننفصل عن باقى القافلة ونشرد هنا وهناك إذا ما فكرنا فى البحث عن هذا الدليل .

ولذلك اجتمعنا نحن الثلاثة الزملاء وقررنا أنه لابد من متابعة السير فى اتجاه الغرب متخذين النجوم والبوصلة وسيلة للسير . كما قررنا أنه لا جدوى من الدليل الذى هرب . وأنه كان يود أن يسرق الطبنجة ويهرب وأنه ضحك علينا . طيب وماذا كنا نفعل لوقاية أنفسنا من (الخديعة) . . لا شئ .

فحمدنا الله أننا لم نوافقه على أخذ الطبنجة ، واعتمدنا على الله ثم على أنفسنا وتابعنا السير ليلاً لمسافات طويلة حتى سمعنا صوت نباح كلب . فاتجهنا إليه حتى وصلنا عنده فوجدنا خيام الأعراب وخرج لنا رجل عجوز سالناه الطريق فدلنا عليه بأن قال ضع النجمة كذا فى السماء على كتفك الأيسر وسر حتى تصطدم ببئر المياه .

وكنا قررنا أن نتبع سلسلة الآبار حتى القنطرة فإنه آمن طريق من الجوع والعطش ولو أنه طويل بعض الشئ .

ومشينا حتى سمعنا نباح كلب آخر ووصلناه فخرج لنا رجل أطعمنا عجوة كثيرة وسقانا ماءً وقام معنا كدليل لأول بئر نقابله . . . سار معنا حتى قرب الفجر فقررنا النوم للراحة وعاهدنا الرجل على المبيت معنا والسير نهاراً وربطنا مقود الناقة بأحد الجنود حتى نطمئن أنها لن تشرد فى الصحراء أو يسرقها منا أحد خصوصا وقد أصبح الشك والارتياب ملء قلوبنا من الأعراب بعد حادثة الدليل الهارب .

قمنا فى الصباح فلم نجد صاحبنا العربى المتطوع فقد غادرنا دون أن نشعر فتممنا على أسحلتنا وبضاعتنا فوجدناها سليمة فحمدنا الله على سلامتنا .

وحزمنا امتعتنا وتابعنا السير حتى وصلنا لبئر آخر وهكذا كان حالنا : السير ثم الراحة وقت الظهيرة لنستأنف السير باقى الوقت . ولما وصلنا منطقة رمانة عرجنا على بعض الأعراب فوجدنا تاجراً كان قد نقل أمتعته من رمانة إلى داخل الجبل ووجدنا عنده جنوداً كثيرة ، كما وجدنا بعض الحاجيات مثل الدقيق والسكر والشاى وعلب الأكل المحفوظة كالعدس والفول واللحوم المحفوظة .

اشترينا منه كمية من كل صنف وعلبة من السمن واشترينا زوجا من الفراخ قامت عائلته بطهيها فأكلنا وشربنا وحمدنا الله .

وعند هبوطنا عنده وجدنا رجلاً قصيراً يحمل سبحة سوداء فى يده ضاحكًا هاشا باستمرار ، وكنا قد سمعنا عن الشيخ عيد أبو جريرة أحد مشايخ الطرق ويظهر أنه كان ذا

شهرة واسعة عند بعض القبائل وقيل لنا أنه إذا ذكرتم اسمه عندهم أكرموكم أيما إكرام . وعلى هذا كنا نردد اسمه عند القبائل وانتمينا إلى حظيرته روحيا وكنت أقول فى نفسى إنه لا بأس من أن انتسب إلى رجل صالح أكرمه الله فكلنّا فى الدين إخوان ، وعلى المسلم نجدة أخيه المسلم . وتمثلّت قول النبى ﷺ « المؤمنون إخوة » وقول الله تعالى لنبيه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه (وإن أحدًا من المشركين استجارك فأجره) فما بالنا ونحن مؤمنين والحمد لله . فلا بأس إذن من الاستجارة وطلب النجدة من الرسول ﷺ وبالتالى أتباعه وأمته لاسيما ممّن اشتهر بالدين وحسن الخلق وأثرّ فى أرواح الناس بالورع والتقوى .

كأن سرًا إلهيًا أودع قلب صحراء سيناء ، سر هذا الرجل الورع الشيخ عيد ابو جريرة الذى أحاطنى بموجة من الاتجاه الخالص إلى الله أثناء هذه الرحلة فى جوف الصحراء وكانت مناجاتى لله سبحانه وتعالى سرًا وجهرًا فى السراء والضراء ، وصار أملى فى النجاة عظيمًا وصبرى على احتمال المشقّة أعظم ، فلم يعد يعترينى بفضل الله فى أى لحظة سحابة يأس أو إظلامه قلب ، وكنت أحس بأن الله قد أكرمنى فعلاً طول الطريق ، بل قد أكرمنى فعلاً وأنا **فى قلب المعركة** وساعة التطاحن الرهيب والتصادم بين القوتين ، وكنت ساعتها أشعر بأن وطأة القتال شديدة وأننا منتصرون فتنجلى غمّة الموقف .

نعود إلى تاجر رمأنّة مرة أخرى ونقول قابلنا هذا الرجل الصالح الذى يسمى الشيخ محسن وكنت أثناء سيرى قد علّقت سبحتى السمراء اليسر فى رقبتى ولم يظهر منها الا بضع حبات قليلة . فعندما ذكرنا له أننا من طرف الشيخ عيد أبو جريره قام محسن هذا وعانقنى عناقًا حارًا كأنه يعرفنى منذ سنين وقال مرحبا بك يا أخى فى الله ، والله إنى لقد عرفتك من وجهك الصالح ومن سبحتك السمراء لن أتركك وحدك ، وسوف أظل معك حتى النهاية . . عندئذ رق قلبى ومست كلماته شغاف روحى وأيقنت أن الله معنا بشكل واضح جلى وأنه أحاطنا برعايته ، فتعلّقت بأهداب السماء وشكرت الله .

وبايعت هذا الرجل فعلاً بقلبى لا بعقلى فقط ، وأيقنت أنه رجل صالح لا مدع ونويت فى نفسى أن أصدّقه كلما تحدث أو كلما أشار برأى . ولقد صدق ظنى به على طول الطريق ؛ إذ أثبتت الأيام أنه جندى من جنود الله فعلاً ، تقى ورع ، هدانا إلى الطريق الصحيح في سيرنا وفى تصرفاتنا . فكان هذا كرمًا جديدًا من الله علينا الذى لا تحصى عطاياه .

دعوت هذ الرجل أن يقرأ معنا الفاتحة ويتعهد فى ارشادنا حتى القنطرة وله كل ما معنا من أموال وغيره ، وله أيضا أن نصحبه إلى القاهرة حيث نزور أهل البيت الشريف رضوان الله عليهم ونريه القاهرة فى ضيافة طيبة . فقرأنا الفاتحة جميعا على هذه النية ورضى بذلك طائعا مختارا بل رضى لله فى الله وقال أنا لا أساوم ولا أريد أن أطلب منكم مالاً ولكننا طمأناه على حقه وبذلك بدأت مرحلة جديدة من الرحلة كانت طيبة . وكان هذا الرجل بشيرا طيبا وفألاً حسناً لرحلة سعيدة بعد ذلك .

فى هذا المكان وجدنا خوذة صلب فضممناها إلى متاعنا لكى نستعملها فى الشواء وإنضاج العدس وغير ذلك . واعتمدنا على الله وتابعنا السير ليلاً ونحن مطمئنين إلى مرشدنا الجديد الذى روّح عن صدورنا كابوس السؤال عن الطريق باستمرار وأعتقد أنه وفر علينا نصف الوقت تقريبا لأننا كنّا نقطع مسافات طويلة فى الليل ، وعندئذ قررنا الراحة والنوم فانتحينا سفح جبل بعيد عن الريح الشديدة .

وأخذ الشيخ محسن يجمع الحطب فقد كان ليل الصحراء باردًا وارتفعت ألسنة النيران فشعرنا بالدفء الجميل ، واخرجنا بعض السكر والشاى وشربنا وحمدنا الله ، والتفع كل فرد منا بطاطينه وحفر لقامته فى الرمل وأسلمنا جفوننا لنوم هادئ مقرون ببعض القرفصة من البرد ولقصر البطانية حتى طلعت الشمس فواصلنا السير .

وهكذا ظللنا ننتقل من مكان إلى مكان حتى بدت لنا أشجار البلح الكثيرة كالواحات من بعيد فكان منظرًا يهيجًا بعد سير طويل فى رمل صفراء تكاد عيوننا تتلون معها .

جلسنا فى واحة من النخيل وأخرجنا الدقيق وقام الشيخ محسن بجمع الحطب هو وزملاؤنا الجنود الذين معنا ثم أتى بالماء من بئر الواحة وعجن الدقيق فى الخوذة وطلب ملحًا فلم يجد .

أشعل النار فى الحطب حتى صفت ألسنتها فأزاح الركام وبرزت حبّات الجمر حمراء صغيرة وكثيرة فوق الرماد . وفرد البطانية وبسط العجين فى هيئة قرصة كبيرة ثم نقلها على الرماد الأحمر ثم غطاها بجمرات النار حتى كادت تختفى . وبعد دقائق أزاح عن وجهها النار فوجدناها استوت . ثم قلبها مرة أخرى على النار وأعاد الكرة . وماهى إلاّ دقائق حتى أخرجها وأخذ يضرب وجهها بالبطانية لينظفها من التراب وفاحت رائحة القرصة كالفطير اللذيذ . وتهافتنا عليها تهافت الجياع على الوليمة وكانت نعمة كبيرة ما بعدها نعمة ثم

اخرجنا علبه من العـدس وأفرغناها فى الخوذة وشربناها ساخنة جميـلة ، وشربنا فى العلب الفارغة الأخرى ، والتى فسخنـا غطاءها بواسطة سونكى صغير أخذنـاه من أحد الجنود لهذا الغرض .

وفى اليوم التالى قابلنا جمالا عليها بلح وعجوة واشترينا منها كمية كبيرة .

جلسنا وتعشينا خبزًا على الطريقة الـعربية فى الخوذة ، وعاودنا السير ثم قررّنا ان يسير بنا الشيخ محسن إلى أى رجل طيب يمكن أن نـؤجر منه جمالا لكى نسرع فى السير ووافق على ذلك .

وظللنا تطوينا التلال والقفاز حتى دب الليل وسمعنا من بعيد أذان الله أكبر . .

انتعشـت قلوبنا وشعشـع فؤدانا وشّدنا هذا الأذان إليـه بقوة جارفة فقد أوحـى الله فى قلوبنا الأمل العظيم وبشرّنا بالغد المشرق المضئ . وكان كالماء العذب للظمآن الشديد .

وجدنا أنفسنا أمام خيـام العرب ورجالا كثيرين قائمين للصلاة فصلـينا معهم العشاء - ثم قابلنا صاحب المضيفة وكان تاجرًا من بئـر العبد أكرمنا وأحضر لنا الشاى والخبز واللبن المملح وكثيرًا من الطعام غيره ، وبعضا من الحلاوة الطحينة .

وتدثرنا بالبطاطين والأكلمة والمخدات ونمنا نوما هادئًا حتى الصباح فدلنا على عمدة بئر العبد لنجد عنده المعونة والجمال وغير ذلك ، وأعطانا بعضًا من الدقيق والعجوة فحمدنا الله على فضله وتابعنا السير .

كان حديث الليلة السابقة مع هؤلاء الأعراب شجيًا مشجعًا وسمعنا فى تلك الليلة راديو القاهرة وأخبار مصر العزيزة التى فقدنا الاتصال بها عّدة أيام قاسية .

١٩٦١/١٠/٣١

أعود إلى مذكـراتى اليوم بعد فـوات خمس سنوات كنـت خلالها صامتـا لا أكتب ، ولكنى هفوت إلى الـذكرى العزيزة اليوم وقرأت ما سبق أن كتبـته فى مذكراتى . ووجدت نفسى وأنا أطـالع نفسى من خلال هذه المذكـرات القديمة أنى **فى قلب المعركة** من جديد ، ودفعنى هذا الشعور إلى الرغبة فى استكمال هذه المذكرات .

كنا قد وصلـنا إلى رمانة ثم قابلنا بـعض الأعراب الكرماء وكان عمدتـها رجل ضخم

الجثة . وانتهينا من العشاء والمبيت لديه داخل (الأحواش الجريد) وفى الصباح ، تابعنا المسير إلى بئر العبد . . وهناك وجدنا مجموعة من الاقبية المصنوعة من الجريد على شكل نصف دائرة . . وكانت هذه المجموعة هى منازل العمدة وأسرته .

كان العمدة واسمه « رزق » . طويلاً أسمر اللون قابلنا بالترحاب الكبير وأدخلنا أحد هذه المنازل وأحضر لنا مراتب ومخدات نظيفة ثم أحضر لنا ماء دافئ وصابون لوكس وكانت رؤوسنا قد أصبحت كفرورة الخراف وذلك من كثرة الأوساخ التى بها وذقوننا طويلة جدا مخيفة وأقول مخيفة لأنه أحضر لنا مرآة ورأينا أنفسنا لأول مرة بعد المعركة وقد احترقت بشرة وجوهنا وطالت أهداب شعورنا ولحانا وشواربنا . وكان منظرنا مؤثرا على نفسيتنا . ولكن سرعان ما انتعشنا بعد أن غسلنا رؤوسنا ووجوهنا بالماء الساخن والصابون اللوكس . . ثم صمم العمدة أن يحلق لنا ذقوننا . وفعلا أحضر إعرابيًا وحلق لى ذقنى على الطريقة العربية وأصبحت كأحد مشايخ العرب فعلاً .

حمدنا الله على ذلك . . وعلى هذه النظافة . .

احضر لنا الرجل بعد ذلك قصعة من الفتة والأرز وعليها لحمة ضأن كانت ساخنة ولذيذة . وكانت أكلة دسمة التهمناها وكان منظرنا لذيذا حقا ونحن نأكل بشهية وبشعف شديدين ، وانتهينا من تناول الطعام فحمدنا الله وشكرنا الرجل الكريم .

وجلسنا نتسامر ، وأخذ العمدة عنوان كل واحد منا وعلمنا أنه عمدة ، ويعمل بعض الوقت لسلاح الحدود السرى وأراد أن يضيف جميلا آخر إلى كرمه فأعد لكل واحد منا جملا مزرركشًا بالكسوة المدندشة. وفى هذه اللحظة كان نصيبى جملاً صغيرًا، وتركنا الناقة للأخ طلعت الذى كان قد بدأ يسيطر عليها لمصلحته فقط حتى سئمنا من حركاته هذه .

وابتدأنا ننفر من تصرفاته وأنانيته وفضَّلنا أن نمشى على أقدامنا حتى لا نركب الناقة التى يقول إنها خاصة به .

وعلى هذا كنت سعيداً جداً بأن أبدلنى الله عنها الجمل الشاب الأنيق . وإن كنت لاأنسى فضل الناقة علينا جميعا وقت العسرة وطول الرحلة .

ووقف العمدة وأسرته يودعوننا وداعاً حاراً وبعث معنا بابنه الأكبر - ليرافقنا حتى نصل إلى القنطرة - فشكرناه وحمدنا الله عز وجل وسارت القافلة فى اتجاه القنطرة .

وبتنا ليلة بجوار أحد البساتين ثم تابعنا السير فى اليوم التالى إلى القنطرة ، وكان قد انضم إلينا عسكرى آخر كان مصابًا بهيستريا عصبية إذا طارت طائرة فوق رأسه وكان يجرى حول نفسه من الخوف والذعر . .

وصلنا مشارف القنطرة ومكثنا في الظهيرة عند أحد العمد وكان ضخم الجثة ، شهمًا أعد لنا غذاءً شهيًا فتة : ولحمة ضأن وكانت روحه المعنوية عالية جدا ، وكان يقول انه يفضل الموت على أن يحكمه اليهود الكفرة .

وعرض علينا أموالاً مصرية للمعاونة أثناء الطريق ولكننا لم نقبل ، وحمدنا الله ثم شكرناه على كرمه وروحه العالية وغادرناه إلى القنطرة .

ولاحت لنا القنطرة عن بعد بأشجارها الباسقة والخضرة من حولها . ودفعنا هذا المنظر الجميل إلى الإسراع لنصل قبل أن تغرب الشمس .

وعندما اقتربنا من القنطرة وجدنا الدبابات المحترقة والعربات المحطمة منتشرة فى أرجاء الصحراء والمدقات والطرق ، وكانت تعبر عن بشاعة الغارات الجوية فى هذه المنطقة .

وعند دخولنا القنطرة لم نجدها عامرة بل خالية من الناس ولكن سمعنا طلقات نارية صادرة من بنادق فى كثير من الأحيان وفهمنا بعد ذلك ان هذه الطلقات تصدر من بعض العصابات التى احتلت المدينة ونهبت مخازنها ، مخازن الدقيق والزيت والسكر و مخازن التموين ، ومخازن تموين الجيش أيضا ، حتى إننا سمعنا أن الجوال الدقيق كان يباع بخمسين قرشا .

أين المأمور . . وأين رجال الحدود . . . لا أحد .

وصلنا إلى قناة السويس وفرحنا فرحا غامرًا وهنأنا أنفسنا وحمدنا الله أننا وصلنا إلى وادى النيل .

ودعنا المرافقين لنا وأخذوا جمالهم . . أما الشيخ محسن فرافقنا إلى البر الغربى .

وعند عبورنا القناة قابلنا أفراد الحرس الوطنى وكان معهم أحذية وصنادل وجزم كوتش ليسلموها لنا ولأمثالنا العائدين من المعركة حفاة الأقدام . . وكانت روحهم عالية جدا مما رفع معنوياتنا نحن أيضًا ، وعلمنا أن الأمة بخير . . بصمود أبنائها فى وقت الأزمات .

على أى حال أخـذت صندلاً على مقاسى وركـبنا جميعا المـعدية وتركنا متاعـنا كله : البطاطين ، والاسلحة ، وخلافه ، والناقة باسم الشيخ محسن .

وعبرنا مـعه إلى البر الغربـى وهناك لم نجد أحدًا من المسـئولين لاستقبال الـعائدين . ولكنا علمنا أن هناك قطارًا سوف يصل ليلاً ليحمل كل العائدين .

ولكننا رأينا عربة جيش مقبلة وأوقفناها ووجدنا بها ضابط إشارة عرفناه بأنفسنا وطلبنا منه أن يأخذنا إلى رئاسة القطاع .

ولكنه قال إن الإعرابى محـسن ممنوع من العبور لغرب القتال . فعـاد آسفا ونحن أيضا كنا اسفين لعودته ولكننا أعطيناه ما يقرب من عشرين جنيه دفعها له الاخ طلعت . ثم ركبنا السيارة ووصلنا الإسماعـيلية يوم ١٠ نوفـمبر سنة ١٩٥٦ ، ودخلت مبنى رئـاسة القطاع ، وكان بها كمال الدين حسين ....

استقبلنا إخواننا فى هذه الرئاسة بالبشـر والتهنئة والترحاب وقدموا لنا الطعام والشراب بكثرة .. وقابلنا كمال الدين حسين وسألنـا عن احوالنا وكيف كانت المعركة ، ثم أمر بأن ننام فى عمارة الخبراء حتى الصباح ثم نذهب إلى القاهرة .

وفعلا وصلنـا إلى العمارة .. كانت فاخرة مـفروشة ومؤثثة أثاثًا فاخرًا وكـانت كأنها حيه بأهلها فكل شئ فى محله حتى لعـب الأطفال وأعمال الإبرة للسيدات وفساتين السيدات وخلافه .. حتى الحمامات كانت بها انواع الروائح والبودرة وغير ذلك .

استحممنا والحمد لـلـه . وذهبنا إلـى غرف النوم الوثـيرة الناعمـة الطريـة وجـاءنـا مندوب الإذاعة وأخذ منى حديثًا أذيع بالراديو .

وفى الصبـاح ارتدى الزملاء ما وجدوه بـالدواليب وكان تصرفًا لم يعجبـنى وأخذنا العربات إلى القاهرة ، وكـنت قد تكلمت فى التليفون مع الجـيزة . وصلت الجيزة ووجدت الأخ محمد هرمس الذى عانقنى وأخذ لى صورة تذكارية اعتز بها إلى الآن..

وهكذا ..... وصلنا إلى بلدنا المحبوب .. **من قلب المعركة** ...

مقدم « بكباشي » محمود عبد الحميد الثلث

ولد يوم ٥ مارس ١٩٢١

ولد من جديد فى ١٠ نوفمبر سنة ١٩٥٦

واستشهد البطل فى اليمن يوم ٣٠ مارس ١٩٦٣

والحمد لله

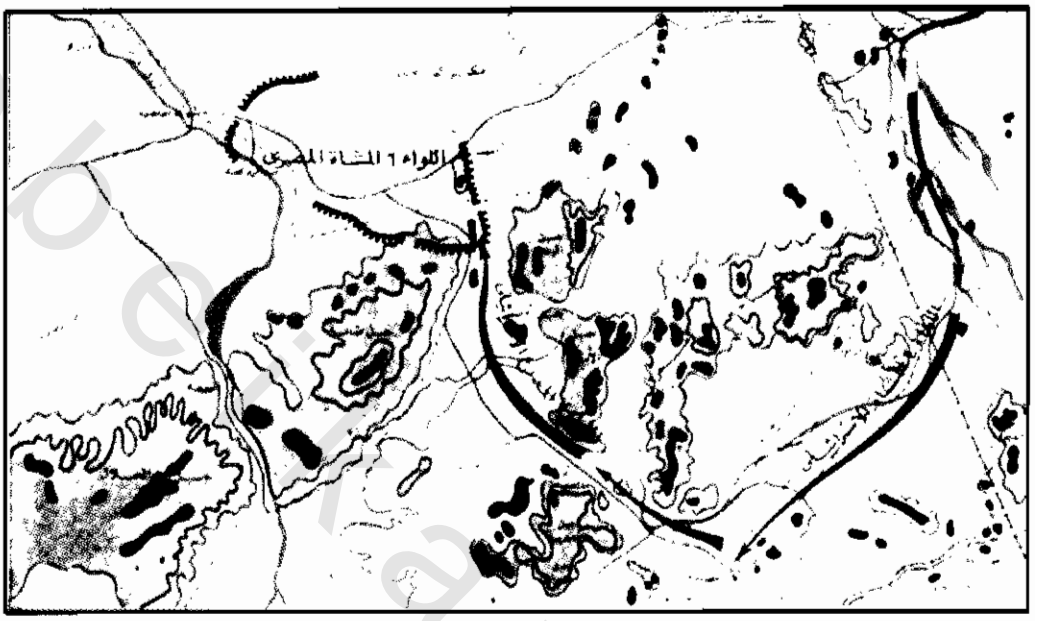

واستمرت الأورطة الثانية الخفيفة المصرية تعطل العدو على طريق القضيمة – أبو عجيلة إلى أن اصطدم العدوّ بدفاعات « أبو عجيلة » الرئيسية فتوقف

وهكذا مضت بجيلنا الأيام ، حلوها ومرّها ، انتصاراتها وهزائمها ، دموعها ودمائها ، أبطالها وشهدائها ، على نحو ما عشناه مع هذا السيناريو الذى قصّه علينا البطل الشهيد المقدم محمود عبد الحميد الثلث ويبقى أن نبدأ القصة من أولها . . فى قلب المعركة .